الفصل الثالث و الأربعون

فشل مشروع بشير

-هذه السيارة القديمة كم يتعب الانسان بها. في كل يوم عطل ما في مكان ما. أريد أن أبيعها لك.

وتضاحك الصديقان القديمان، ولكن ليس بتلك العاطفة المخلصة الماضية. كان بشير لايرتاح لأحمد، فهو يحرك أوتارا في نفسه تبكته وتتهمه، وهو يجد نفسه مضطرا ليعتذر ويفسر ويبرر من أين يشتري ثلاثة شقق بمائة وخمسين ألف ليرة، ومن أين يفرش بيته بالأثاث الفخم، ومن أين ينفق عن مثل تلك السعة وهو الذي كان يفخر بأن أباه مات على الحصير يوم كان التقدم موضة المثقفين.

بدأ حديثه قائلا:

-انني "أزرب" بالديون. لم أقدر تكاليف المشروع حق قدره!. وأصبح لوالده فجأة أراض ورثها عنه ودخلت في التنظيم وارتفعت أسعارها. ولما لم يجد صدى لتبريراته في وجه أحمد الذي ارتسمت عليه بسمة ارتياب لاتفارقه وهو يهز رأسه هزات متتالية كأنما يؤكد له أنه يصدقه في ما يروي ولكنه لايبغي سماع المزيد، غير الحديث بقوله:

-ماذا ترى يا أبوعزيز في هذا الخط الذي تسير عليه القيادات العسكرية في البلاد المتخلفة، أهو خط تحرري أم تبعي، هل علينا نحن الشيوعيون أن ندعمه أم نقاومه؟

وأجابه أحمد:

-لقد أصبح هذا السؤال غير وارد الآن. لقد هللنا أنا وأنت كثيرا يوم تأميم شركة قناة السويس، لأن تورط القيادة المصرية في نزاعات مع القوى الامبريالية يجعلها تقطع روابطها التبعية وتتحول مسيرتها الى

حركة تحرر فعلية تدفعها نحو التطورالاقتصادي، وفي هذه الحال لايكون هناك ثمة تناقض بين الحركة القومية التحررية والحركـة الإشـتراكية، ولكنني بت أخشى الآن أن يكون الأمر مجرد انتقال للتبعية مـن مركـز لآخر ومن طبقة لأخرى.

-أرى أن دورنا لم يعد طليعيا، ولم يعد لنا من مجال الاّ السير فـي ركاب السلطة. من جهتي لاأثق بالعسكريين ولا بالدكتاتوريات، فرديـة كانت أم حزبية، بعدما شاهدت ما شاهدت في البلدان الإشتراكية. سيدي، النظام رائع ولكن التطبيق سيئ، كلهم يرتشون. حدثني فلان، انك تعرفه، عشرة أعوام وهو ينتقل من سفارة الى أخرى في تلك البلاد، أنـك بمـا يعادل مائة ليرة سورية تستطيع أن ترشو مدير أيـة شـركة مؤممـة. لاثورية ولا إشتراكية كما نقرأها في الكتب، ولا عدالة اجتماعية. لاتجـد رأسماليا يسمح لك أن ترشوه، لا بمثل هذا المبلغ التافه بل بمائة ضعفه.

كان من الواضح لأحمد أن المرتدين قد توصلوا الى فلسفة تناسـب ممارساتهم. بدأوا برفض الأخلاق البرجوازية لمصلحة أخلاق اجتماعية أرقى، وانتهوا برفض الأخلاق كليا. لقد أصبح مايميز الخير والشر هـو قدرة أحدهم على التبرير!. وأحس أحمد أن من واجبه أن يذكّره ويفـوت عليه فرصة التبرير. كم يتغير الناس! ان بشير الذي سبق له وقام بـدور الأستاذ لأحمد أصبح اليوم تلميذه الفاشل. ان التجربة وحدها هـي التـي تميز بين من يعرف ليساوم على المعرفة، ومن يعرف ليتزين بها، ومن يعرف ليجعلها حياة في واقع مجتمعه!.

-الرأسمالي لايرتشى لأنه صاحب المصلحة فهو لا يسرق نفسه. انه نظامه الذي يحافظ على استقراره ولا يخربه. وهذا النظام يتيح لـه كـل

أنواع الإستغلال فلماذا يرتشى؟ أما في بلاد إشتراكي لم يبلغ بعد تطـورا يجعل كل فرد يشعر بالاكتفاء فقد يفعل..

-ولن يأتي هذا اليوم الذي يشعر فيه بالاكتفاء...

-فلا بد أن نجد هنا وهناك بعض الأوباش الذين يأخذون أكثر مـن حقهم.

-يا أبو عزيز.. الطبقة الجديدة.. ألم تقرأ كتـاب الطبقـة الجديـدة؟ عندما يكون الأوباش في سدة الحكم فالأمر خطير. حين يقفون على منابع ثروة الشعب يغترفون منها ما يشاؤون دون حسيب أو رقيب..

-مهما فعلوا لن يكون أحدهم الاّ قزما بالنسبة لروكفلر مثلا، الـذي ينهب ثروات بلاد بأسرها ، ويأتي يوم يُكشف فيه أمرهم ويحاسبون على مايفعلون حسابا قاسيا لأنهم أعداء لنظامهم. ولكن لـيس مـن يحاسـب روكفلر لأن ما يفعله ضمن نظامه، ويعتبره من حقه.

-يصبح الأمر خطيرا حين يتصرفون بمصائرنا. ولهذا ماعدت أومن بمركزية الحركة التقدمية. زوان بلادي خير من قمح جلب.

-نحن نتبع نظاما وليس دولة أو أفرادا، ومـن حقنـا أن نتحاشـى الأخطاء في تجارب غيرنا ولا نقع فيها، والا أصبح الأمر وثنية.

-قل هذا الكلام للجامدين بيننا. تعبت معهم. لامنطق لـديهم. لاأحـد يقف في منطقة الحياد التي يدعيها، والا اتهم في اخلاصه.

-أنا لست مع أولئك الذين يفهمون من الحياد أن يضعوا الإشتراكيين والإمبرياليين في ميزان واحد ليرتموا بعد ذلك في أحضان الإمبرياليين. الإشتراكيون لاينهبون ثرواتنا ويكرسون تخلفنا ويقمعون طموحنا للحرية. قد نجد بينهم من انحرفوا أو أخطأوا في تقدير ظروفنا. ان من واجبنا أن

ندافع عن رؤيتنا كأنداد ونبصرهم. نحن لانفهم موقفهم، وكيف يـدعمون بالمساعدات نظاما يضطهد أشرف الوطنيين.

-يقولون أنهم يعرفون طبيعة هؤلاء القادة ولكنهم يخـشون ان هـم ضنوا عليهم بالمساعدة أن ينجرفوا في أحضان الغرب.

-انهم يتصرفون كأنه بالامكان أن تكون هناك طريق ثالثـة للـبلاد المتخلفة. وبدل أن يفضحوا هـذا الـدجل يـساعدون علـى ترويجـه، ويورطون التقدميين الشرفاء. لقد ذوب شيوعي بالأسيد في مزرعة دفع فيها رجل لايملك الاّ القميص على ظهره يوم دخل جهـاز المخـابرات نصف مليون من الليرات من أموال الإشتراكيين الذين يخشون على هذا النظام أن ينجرف الى أحضان الغرب. ألا يمكنكم أن تروا أن الإستعمار الحديث أصبح لديه أعوانه الجدد؟ أهؤلاء الناس يريدون أن يخرجوا من التبعية؟ أمام عيني قتل ضابط فلـسطيني مـن بـين الـضباط الـستة الفلسطينيين الذين اتهموا بمؤامرة مزيفة تحت الضرب، وحتى الآن يظن أهله أنه هرب الى البلاد الإشتراكية، ويعجبون لماذا لايبعث اليهم برسالة يطمئنهم. يلقى بالتقدميين في السجون حتى يتعفنوا دون محاكمـة. كـان بيننا رجل لديه حصوة بالمرارة تأتيه النوبة فيتلوى من الألم، ويأخذونـه الى المستشفى ويخدرونه فيأتي رجال المباحث ويمنعون الأطبـاء مـن إجراء العملية، وحين يستيقظ من التخدير يجد نفسه حيث كان بانتظـار نوبة جديدة، ويساومونه على خيانة رفاقه والتخلي عن قناعاته لقاء انقاذه من الألم والعذاب، وحين يرفض يتركونه دون اجراء العملية. سبع مرات يتكرر الحادث والأطباء يقفون عاجزين عن التدخل أمام سطوة المباحث التي تحكم رقاب الناس. دون محاكمة في القرن العشرين يفقـد التقـدمي الغارق في الظلام والعفن وهو يلعق جراح جسده المدمى ايمانـه حـين

تزين صدور جلاديه بأوسمة لينين. كيف يمكن أن يحدث ذلـك؟ وكيـف يمكن أن تبقى حركة تقدمية متماسكة بعده؟ يجري هذا حين يتقاسم سفير دولة اشتراكية أرباح المشاريع مع رجال المخابرات هنا، ويستعين بهـم في قتل رجل أراد أن يكشف تصرفاته لحكومته، ويتغاضون عنه. أهـذا تصرف فردي، أم دم فاسد يجتاح قلب الحركة؟ لنكن على حـذر. نحـن نتبع نظاما متطورا هو تراث عالمي متجدد ليس ملكا لأحـد، ولا نتبـع أفرادا قد يصيبهم العفن. لايجب أن نصمت على الأدران، أو نداريها، أو نسترها، فنحن بمحاصرتها واستئصالها فقط نحافظ على سلامة الحركة. هذه الحركة الإنسانية التي تعطينا الحق أن نكون فيما بيننا أندادا يغارون على قضية التقدم، هي التي تعصمنا وتعصمها من الانحـراف، ولـيس ذنبها أن بيننا من يحب لنفسه دورا ذيليا.